الفصل الخامس

الحضارة الإسلامية

- تمهيد
- **أولًا:** تعريف الحضارة الإسلامية
- **ثانيًا:** أصل الحضارة الإسلامية
- **ثالثًا:** خصائص الحضارة الإسلامية
- **رابعًا:** الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية
- **خامسًا:** شهادة الغرب للحضارة الإسلامية بأنها حضارة علم
- **سادسًا:** نبذة عن الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية
- **سابعًا:** عوامل انحدار الحضارة الإسلامية
- **ثامنًا:** هل ستعود الحضارة الإسلامية إلى رونقها من جديد؟

تمهيد

ينكر بعض المتعصبين والعنصريين من أصحاب الحضارات المعاصرة فضل الحضارة الإسلامية ودورها في تقدمهم وما وصلت إليه حضارتهم، ولكن هناك قلة قليلة أعطت الحضارة الإسلامية حقها. فأنصار الاتجاه الأول سلبها هذا الحق وذلك؛ بسبب تعصبهم الأعمى اتجاه الحضارة الإسلامية سواء أكان هذا التعصب تعصبًا دينيًا، أم تعصبًا عرقيًا، أو سواء أكان تعصبًا من أي نوع فهو في نهاية الأمر تعصب أعمى أغشى أبصارهم عن حقائق سطرها التاريخ في صفحاته، وحفظها الزمن في ذاكرته، فلا ينكرها إلا جاحد غيور أو جاهل مغمور العقل والفهم والحكمة.

وهذا ما دفعنا لكي نعرض لملامح الحضارة الإسلامية ودورها في تقدم الحضارة الغربية الحديثة؛ لأنها الحضارة التي تكاد تكون الوحيدة التي تعمَّد الغرب تشويهها وإنكار فضلها، على الرغم من أنها الحضارة الأكثر قربًا لهم من ناحية تأثرهم بها في مختلف العلوم النظرية والتطبيقية، كما سنوضح في ثنايا الكتاب الذي بين أيدينا.

لكن ما المقصود بالحضارة الإسلامية، وما عوامل نشأتها وازدهارها، وتشرنقها أو انهيارها؟

أولًا
تعريف الحضارة الإسلامية

هي نتاج لتفاعل ثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام، سواء أكان ذلك إيمانًا وتصديقًا واعتقادًا، أم انتماءً وولاءً وانتسابًا. وهي خلاصة لتلاقح هذه الثقافات والحضارات التي كانت قائمة في المناطق التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولانصهارها في بوتقة المبادئ، والقيم، والمثل التي جاء بها الإسلام هداية للناس كافة[١].

التعريف الإسلامي للحضارة: «هي القيم، والأخلاق، والعقيدة الخلاقة، والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان على الحيوان وتكون دافعًا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به»[٢].

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري: خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقل، الطبعة الثانية، الرباط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠١٥، ص١٤.

(٢) حسن باشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢، ص٤٠

ثانيًا
أصل الحضارة الإسلامية

هل هي حضارة إسلامية، أو عربية، أو مزيج بين العربية والإسلامية؟[١].

لقد اختلف المفكرون حول طبيعة هذه الحضارة وانقسموا إلى ثلاث فرق:

١- ذهب الفريق الأول إلى أنها حضارة عربية، وذلك بسبب أن:

- العرب هم أول من تلقوا الإسلام وحملوا لواءه ونشروا حضارته.
- اللغة العربية هي لغة الحضارة.
- لأن غير المسلمين من المسيحيين، واليهود، والمجوس، والصابئة أسهم في هذه الحضارة مما يتعذر نسبتها إلى الدين الإسلامي.

٢- ذهب الفريق الثاني إلى أنها حضارة إسلامية، وذلك بسبب أنها:

- قامت على الدين الإسلامي، والذي لولاه ما قامت.
- أسهم في هذه الحضارة شعوب غير عربية، بل إن معظم أهل العلم، فيما يقول ابن خلدون - كانوا من العجم، وكان نصيب الأجناس غير العربية يفوق العرب في مختلف مظاهر الحضارة.
- لم تكن الحضارة عربية؛ لأن أساسها هو القرآن والتوحيد والدعوة إلى النظر في الكون والرحمة والإخاء الإنساني والتحرر من الوثنية ومن عبادة الفرد والقيصر والفرعون فهي إسلامية أصلًا عربية شكلًا.
- يقول وليم كانسفبلين: إن كثير من كتاب اللغة العربية عندما يذكرون الدولة

(١) محمود عبد الرشيد، حمزة السروي: مختصر فلسفة الحضارة، ص٢٣، ٢٤.

الإسلامية كدول الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والإمارات الإسلامية يعبرون عنها بقولهم «المدن العربية» وهو تعبير فاسد تكذبه الحقيقة التاريخية فلو قالوا «الدول العربية» لكانوا أقرب إلى الصواب.

- ذلك لأن العنصر الغالب والحاكم فيها كان عربيًا، أما المدن بمعنى ما أنتجت تلك العصور من ثمار العلوم والفنون والصنائع فقد كان «قديمًا إسلاميًا» وليس عربيًا والفرق بين اللفظين ظاهر لا يخفى على ذي بصيرة[١].

ويقول: إن العرب بما فطروا عليه من الذكاء وبعد النظر لم يضطهدوا العلوم والفنون في البلدان التي فتحوها بل على الضد من ذلك ساعدوا على ترقيتها.

فالحضارة الإسلامية عاشت لأنها قامت على أسس راسخة من مفهوم تحرير الإنسان من عبودية الأوثان وتحرير الإنسانية من عبودية القياصرة والفراعنة والأباطرة ولذلك فإن تونيبي لم يستطع أن يتجاهل الحضارة الإسلامية من بين التي ما زالت قائمة[٢].

٣- ذهب الفريق الثالث إلى أنها حضارة عربية/إسلامية، وذلك بسبب أن:

- إبداعاتها جاءت تحت المظلة العربية، وباللغة العربية، لذلك فهي عربية.
- وهي إسلامية من حيث أنها جاءت تحت راية الإسلام، ويبدو أن كلمة الإسلام هنا تستخدم بالمعنى الحضاري وليس بالمعنى الديني.

أما عن رأينا فأرى أنها حضارة إسلامية؛ لأن الإسلامية أعم وأشمل والعربية أخص وأضيق، وقولنا الحضارة الإسلامية يدخل فيها ضمنًا العربية؛ لأن العرب كانوا متفرقين إلى قبائل وعصبيات متناحرة ولما جاء الإسلام أزال كل هذه الفوارق وجمعهم تحت لواء واحد ألا وهو الولاء للإسلام وحده، ثم كانت لغة هذه الحضارة اللغة العربية وكانت موجودة قبل البعثة المحمدية وعمل الإسلام على انتشارها وحفظها بحفظ القرآن الكريم لها.

بالفعل هناك اختلاف في أصلها ولكن، الأمر الذي لا شبهة فيه أنها حضارة لها إبداعاتها، ولها علماؤها، ولعل الفضل والسبق في كثير من العلوم والمعارف يرجع لها، نعم

(١) أنور الجندي: حضارة الإسلام تشرق من جديد، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٨٠، ص٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٧، ص٨.

تعيش اليوم في ثبات عميق ولكن سيأتيها اليوم الذي يشاء الله أن تنهض فيه من جديد. وهذا ما سنعرضه لاحقًا.

ثالثًا
خصائص الحضارة الإسلامية

إن الحضارة الإسلامية أسسها ثابتة غير القابلة للتغيير أو التبديل فالقرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية، كان من المنطق أن يكون لها خصائص تتميز بها عن غيرها من الحضارات ونذكر من هذه الخصائص ما يلي:

١- الحضارة الإسلامية حضارة إلهية الطابع:

إن أساس ما تركزت عليه الحضارة الإسلامية في جوهرها وأصلها هو الوحي الإلهي، فهي ليست بشرية الطابع المميز ينعكس في كل ما يشمله مفهوم الحضارة الإسلامية من معارف لأن تلقي هذه المعارف وتقويمها يكون محكومًا دائمًا بالقيم المنزلة من عند الله ولهذا نجد أعلم يتلقى العلوم والمعارف وينظر إليها ويقومها من خلال منهج رباني وهو مصدر هذه العلوم والمعارف الأمر الذي يجعل لا يقيم وزنًا لأمور يتلقاها عن غير هذا المصدر.

٢- الحضارة الإسلامية حضارة عامة وشاملة:

عن الحضارة الإسلامية شاملة لجميع أوجه نشاطات الحياة فلا تهتم بجانب على حساب جانب آخر، فهي تنظم جانب الإنسان المادي بتوازن[1]، وتعطي العلاقة بين الإنسان ونفسه تتمثل في حسن خلقه وأدبه واحترامه لنفسه، فالحضارة الإسلامية ليست قاصرة على الأمور الدينية كما يتوهم البعض، إذا يترتب على ذلك قصر الدين على العبادات وإبعاد الإنسان عن أمور الدنيا وهذا لم يقل به عاقل.

إن الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، والقواعد والأصول التي بنيت عليه

---

(١) شوكت محمد عليان: دراسات في الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، الرياض، دار الشواق، ١٩٩٦، ص١٩.

تخاطب عموم أفراد الجنس البشري دون استثناء أحد كائنا ما كان فهي تسوي بين البشر ولا تفرق بين أحد منهم لأي اعتبار فأساسها العقيدة ويركز على التوحيد والإيمان.

يقول النبي ﷺ: «أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»[١].

٣- الحضارة الإسلامية «حضارة الانفتاح»:

الحضارة الإسلامية حضارة الانفتاح... وهذا الوصف قريب بل متماثل للاستعمالات الحديثة التي ترمز إلى مفهوم التعايش بين الحضارات، والثقافات، بل والديانات.

كما لم تكن الحضارة الإسلامية منظومة مقفلة على ذاتها رغم خصوصيتها، ذلك أن الحضارة الإسلامية لا تعرف التمحور على (الذات) إذ اعترف الإسلام بالأنبياء السابقين، واستوعب القرآن ميراث النبوات السَّابقة، وفي اعتراف الإسلام بها انفتاح الإسلام على بقية الثقافات. وحينما انفتحت الحضارة الإسلامية على غيرها كان مدخلها قائم على الاعتراف بـ(الغير)، وجعلت من التعارف بين الشعوب والحضارات والتدافع بديلًا للصراع والهيمنة[٢].

فالحضارة الإسلامية عاشت منذ ولادتها استمرارية تفاعل مع الحضارات الأخرى، ففتحت حدودها الفكرية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية على مختلف أنواع البشر، بكافة معتقداتهم وعلى اختلاف مقاصد وأهداف حضاراتهم.

فخير الحضارة الإسلامية جاء ليعم الإنسانية، ويحدث توازنًا في العلاقات البشرية داخل منظومة وحدة الأمة الواحدة بدلًا من التمزق والانحصارية التي دعت إليها بعض الحضارات المادية بل عاش المسلمون منذ التاريخ الإسلامي الأول وحدة الأخوة التكاملية انطلاقًا من مبدأ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٣].

(١) شوكت محمد عليان: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص٢٠

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة، ص٢٨.

(٣) سعاد رحائم: الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات، الطبعة الأولى، الدوحة، دار الكتب القطرية، ٢٠٠٧، ص٥٥.

الناحية الاقتصادية: القصد خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير وفي الحديث «ما عال مقتصد ولا يعيل» أي ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يقتر وعلم الاقتصاد علم يبحث في السلوك الظاهري للفرد حال سعيه لتدبير معاشه.

ويقول علماء الاقتصاد: إن هدف الاقتصاد هو تحقيق الرفاهية للناس جميعًا وإن الفكر الاقتصادي بصفة عامة هو جملة الآراء والمفاهيم المعنوية التي تؤثر في سلوك الإنسان تجاه الثروة وإنتاجها وتوزيعها.

وإن النظرية الاقتصادية مفهوم متكامل يقوم على داعمتين هما:

الإنتاج والتوزيع ولكل منها نظرية تكمل الأخرى[1].

٤- الحضارة ذات طابع إنساني - عالمي:

فهي تتعامل مع الإنسان أيًا كان موقعه ولا تقتصر على الجماعة التي شكلتها فحسب. وهي من أجل ذلك تجاوزت بل كسرت كافة الحواجز العرقية والإقليمية، والجغرافية، والطبقية، واللونية، والمذهبية لكي تحقق انتشارها على مستوى العالم كله، كما إنها قبلت مشاركة كافة الفئات والجماعات المنضوية في نسيج المجتمعات الإسلامية أيًا كانت أديانها، وعروقها، وانتماءاتها.

لقد تشكلت هذه الحضارة لكي تتعامل مع الإنسان وتكون بحجمه وتستجيب لمطامحه، ومنازعه، ودوافعه، واهتماماته، وأشواقه.

ولذلك لم تضع بينها وبين الإنسان أسلاكًا شائكة باسم العرقية حينًا، والطبقية حينًا آخر، أو المذهبية، أو الجغرافية حينًا رابعًا، بل إنها لم تضع هذه الأسلاك حتى باسم الدين رغم إنها حضارة منبثقة عن الدين نفسه لقد وهبت نفسها للإنسان والعالم دون أن تمارس خطيئة الانغلاق على الذات.

إنه ما من حضارة في تاريخ العالم قدرت على تجاوز هذه الحساسيات جميعًا ومخاطبة الإنسان هذا الكائن المتفرد من حيث هو إنسان كالحضارة المنبثقة عن هذا الدين

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١٢، ص٤٣.

وقد سبق أن مر بنا ونحن نتحدث عن وظائف الحضارة الإسلامية كيف إنها مارست انفتاحًا إنسانيًا يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ويرفض الأنانية والاستعلاء.

لقد فتح المسلمون صدورهم وعقولهم لكل طالب علم كما فتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصارعيها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم القديم ويلفها بالنور[١].

(١) عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥م، ص٦٣.

رابعًا
الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية

كانت فترة ظهور الإسلام الفترة التي أعادت صياغة الإنسان في الجزيرة العربية، وأرست لبنات حضارة جديدة أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ووضعت الأساس لبناء الإنسان في الإسلام، وكان الوحي هو الذي يعيد صياغة الفرد في معتقداته وأفكاره ويزكيه، وينشئ الروابط، ويؤسس الصرح الذي يقوم عليه بناء الأمة وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦][1].

لذا فمن أبرز هذه الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ما يلي:

١- عقيدة التوحيد:

حيث أرسى الإسلام مفهومًا للتوحيد عندما خاطب مشركي مكة ذاكرًا لهم أنه لا يكفي ما هم عليه من توحيد الربوبية أي الإقرار بأن الله هو رب كل شيء وخالق كل شيء، بل لا بد أن يقترن هذا الإقرار بالتوحيد بالعبادة لله وحده لا شريك له من مخلوقات الله، وقد ترتب على هذا الإقرار آثار إيجابية في بناء المسلمين؛ لأن الناس عندما يقبلون الخضوع لله فإنهم سيحللون ما حلله، ويحرمون ما حرمه، ويجاهدون في سبيله لإرساء قيم: الحق، والعدل، والكرامة.

٢- العلم:

حيث جاء الإسلام ليعيد ترتيب العقل الإنساني، ثم يطلقه ليعرف ربه من خلال آياته

(١) صفوت مصطفى خليوفتيش، الإسلام والغرب، ترجمة هدير أبو النجاة، الطبعة الأولى، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٧م، ص١٠٠

في الكون والنفس، وكان أول ما نزل من الوحي قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ [العلق: ١] وهو يختص بالعلم وامتن الله على محمد ﷺ بالعلم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وامتن على المسلمين بأن بعث فيهم رسولًا معلمًا، ومما يدل على اهتمام الإسلام بالعلم أن النبي ﷺ جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم الواحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة[١].

٣- الأخلاق الفاضلة:

إذ إن القرآن الكريم دستور شامل لتربية الأفراد والجماعات تربية صحيحة في شتى مجالات الحياة والنبي ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فجعل مكارم الأخلاق هدفًا لبعثته وغاية لرسالته وكفى بذلك تنويهًا وتشريفًا لقيمة الأخلاق في دعوته، إن جميع القيم التي أسست لقيام الحضارة الإسلامية في العهد النبوي هي من آثار التربية الإسلامية الصحيحة[٢].

٤- العمل:

العمل هو الذي يشيد صرح الحضارة، والإسلام يدعو للعمل بل هو دين عملي ونبي الإسلام كان يتعوذ من العجز والكسل وحث الإسلام الناس على عمارة الأرض في شتى الميادين انطلاقًا من قول الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] والأحاديث التي تدعو للعمل من أجل طلب الرزق وعمارة الأرض كثيرة جدًا.

٥- العدل:

وقد ركزت نصوص القرآن والسنة على قضية العدل قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [سورة المائدة: ٩٠].

---

(١) صفوت مصطفى خليوفتيش: الإسلام والغرب، ترجمة هدير أبو النجاة، الطبعة الأولى، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٧، ص١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٣

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ [سورة المائدة: ٨].

ومن الأمثلة الواردة في السنة قول الرسول ﷺ: «إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ علَى مَنابِرَ مِن نُورٍ، عن يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وما ولوا»[1].

لكن: هل انتشر الإسلام وحضارته بالسيف؟

يردد الغربيون الحاقدون على الإسلام وأهله والمتحيزون لحضاراتهم وغير المنصفين للحق والعدل والإسلام، أو أولئك الذين لم يطلعوا على الحضرة الإسلامية وتاريخها بل يستقون علومهم من الصحف والإعلام فحسب وخاصة أصحاب الجرائد الصفراء الذين يرددون أكذوبتهم: «إن الإسلام انتشر بالسيف»، فكيف نرد على هذا؟[2].

يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، إن هذا البيان القرآني بإطاره الواسع الكبير الذي يشمل المكان كله، فلا يختص بمكان دون مكان، والزمان بأطواره المختلفة وأجياله المتعاقبة فلا يختص بزمان دون زمان، والحالات كلها سلمها وحربها فلا يختص بحالة دون حالة، والناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم عربهم وعجمهم فلا يختص بفئة دون فئة؛ ليجعل الإنسان مشدوهًا متأملًا في عظمة التوصيف القرآني لحقيقة نبوة سيد الأولين والآخرين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] رحمة عامة شاملة، تجلت مظاهرها في كل موقف لرسول الله ﷺ تجاه الكون والناس من حوله.

والجهاد في الإسلام حرب في غاية النقاء والطهر والسمو، وهذا الأمر واضح تمام

(١) صفوت مصطفى خليوفتيش: الإسلام والغرب، ترجمة هدير أبو النجاة، الطبعة الأولى، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٧، ص١٠١.

(٢) رد فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة، على فتوى الرد على مقولة «الإسلام انتشر بالسيف»، بتاريخ: التاريخ: ٠٦/٠٩/٢٠١١، رقم الفتوى: ٢٤٣٠، على موقع: دار الإفتاء المصرية، http://www.dar-alifta.org/ar/ViewFatwa.aspx?sec=fatwa&ID=12787.

الوضوح في جانبي التنظير والتطبيق في دين الإسلام وعند المسلمين، وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، والإصرار على جعله طرفًا في صراع وموضوعًا للمحاربة، أحدث لبسًا شديدًا في هذا المفهوم - مفهوم الجهاد- عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف، ويكفي في الرد على هذه الحالة من الافتراء، ما أمر الله به من العدل والإنصاف، وعدم خلط الأوراق، والبحث عن الحقيقة كما هي، وعدم الافتراء على الآخرين؛ حيث قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو توماس كارليل، حيث قال في كتابه «الأبطال وعبادة البطولة» ما ترجمته: إن اتهامه - أي سيدنا محمد ﷺ- بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها. اهـ «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (ص١٦٦).

ويقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وفي عصور الفتوحات من بعده: [قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة...، ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها...، ولم يكن القرآن أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط][1].

هذا وقد مكث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بمكة ثلاثة عشر عامًا، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خيار المسلمين

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣، ص١٢٨-١٢٩.

من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثروة عظيمة يغري بها هؤلاء الداخلين، لم يكن لديه إلا الدعوة والدعوة وحدها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّل المسلمون -لا سيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم- من صنوف العذاب وألوان البلاء؛ ما تعجز الجبال الرواسي عن تحمله، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحدًا منهم ارتدَّ سخطًا عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاءً ونقاءً، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوةً وصلابةً، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة، وفي المرارة حلاوة. أفيصح مع هذه الحقائق الناصعة أن يقال: إن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد قهر الناس، وحملهم على الدخول في دينه بالقوة والإرهاب والسيف؟!

ويتبين من التدبر لآيات الله سبحانه وتعالى؛ أن القتال في الإسلام من أنقى أنواع الحروب، وقد تجلى ذلك من عدة نواحٍ كالتالي:

١- من ناحية هدفه وأسلوبه.

٢- من ناحية شروطه وضوابطه.

٣- من ناحية ما ترتب عليه من نتائج.

أولًا: أهداف الحرب في الإسلام:

١- رد العدوان والدفاع عن النفس.

٢- تأمين الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.

٣- المطالبة بالحقوق السليبة.

٤- نصرة الحق والعدل.

ثانيًا: شروط الجهاد:

١- النبل والوضوح في الوسيلة والهدف.

٢- لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان على المدنيين.

٣- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال؛ فلا عدوان إلا على الظالمين.

٤- المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان.

٥- المحافظة على البيئة، ويدخل في ذلك النهي عن قتل الحيوان لغير مصلحة وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت.

٦- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان، وعدم التعرض لهم.

ثالثًا: الآثار المترتبة على الجهاد:

١- تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

٢- إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

٣- إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

٤- تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

٥- تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم.

حقائق غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والفتوحات الإسلامية:

١- إن مجموع تحركات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ العسكرية نحو ثمانين غزوة وسارية وإن القتال الفعلي لم يحدث إلا في نحو سبع مرات فقط.

٢- المحاربون كانوا كلهم من قبائل مضر أولاد عمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فلم يقاتل أحدًا من ربيعة ولا قحطان.

٣- أن عدد القتلى من المسلمين في كل المعارك ١٣٩، ومن المشركين ١١٢، ومجموعهم ٢٥١، وهو عدد القتلى من حوادث السيارات في مدينة متوسطة الحجم في عام واحد، وبذلك يكون عدد القتلى في كل تحرك من تلك الثمانين ٥ , ٣ أشخاص، وهذا أمر مضحك مع ما جُبل عليه العرب من قوة الشكيمة والعناد في الحرب أن يكون ذلك سببًا لدخولهم الإسلام وتغيير دينهم.

٤- لقد انتشر الإسلام بعد ذلك بطريقة طبيعية لا دخل للسيف ولا القهر فيها، وإنما بإقامة العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وعن طريق الهجرة المنتظمة من داخل الحجاز إلى أنحاء الأرض. وهناك حقائق حول هذا الانتشار؛ حيث يتبين الآتي:

في المائة العام الأولى من الهجرة: كانت نسبة انتشار الإسلام في غير الجزيرة كالآتي: في فارس (إيران) كانت نسبة المسلمين فيها هي ٥٪، وفي العراق ٣٪، وفي سورية ٢٪، وفي مصر ٢٪، وفي الأندلس أقل من ١٪.

أما السنوات التي وصلت نسبة المسلمين فيها إلى ٢٥٪ من السكان فهي كالآتي:

إيران سنة ١٨٥هـ، والعراق سنة ٢٢٥هـ وسورية ٢٧٥هـ ومصر ٢٧٥هـ والأندلس سنة ٢٩٥هـ.

والسنوات التي وصلت نسبتهم فيها إلى ٥٠٪ من السكان كانت كالآتي:

بلاد فارس ٢٣٥هـ والعراق ٢٨٠هـ، وسورية ٣٣٠هـ، ومصر ٣٣٠هـ، والأندلس ٣٥٥هـ.

أما السنوات التي وصلت نسبة المسلمين فيها إلى ٧٥٪ من السكان فكانت كالآتي:

بلاد فارس ٢٨٠هـ والعراق ٣٢٠هـ، وسورية ٣٨٥هـ، ومصر ٣٨٥هـ، والأندلس سنة ٤٠٠هـ.

خصائص انتشار الإسلام:

أ- عدم إبادة الشعوب.

ب- معاملة العبيد معاملة راقية، وتعليمهم، وتدريبهم، بل وتوليتهم الحكم في فترة اشتهرت في التاريخ الإسلامي بعصر المماليك.

ج- الإبقاء على التعددية الدينية من يهود ونصارى ومجوس؛ حيث نجد الهندوكية على ما هي عليه وأديان جنوب شرق آسيا كذلك.

د- إقرار الحرية الفكرية، فلم يعهد أنهم نصبوا محاكم تفتيش لأي من أصحاب الآراء المخالفة.

هـ- ظل إقليم الحجاز مصدر الدعوة الإسلامية فقيرًا حتى اكتشاف البترول في العصر الحديث.

إن هذه الحقائق ظلت باقية إلى يومنا هذا وعبر التاريخ، وعلى العكس منها تعرض العالم الإسلامي للاستعمار، ولإبادة الشعوب، وتهجيرها، ولمحاكم التفتيش، والحروب الصليبية، ولسرقة البشر من غرب أفريقيا، وصناعة العبيد في أمريكا من ملف واسع كبير.

والغرض من ذكر ما سبق المقارنة بين نقاء الإسلام والحروب عند غيرنا قديمًا وحديثًا. هذه حقيقة انتشار الإسلام، وسمات الجهاد في الدين الإسلامي.

وإجمالاً لما سبق فلقد أكد الإسلام على عدم القتل وأكد أيضًا على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ولقد شهد غير المسلمين للإسلام بذلك، فيقول الاسقف (يوحنا النقيوسي) وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر فيقول: «إن الله الذي يصون الحق» لم يمهل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين). ثم نهض المسلمون وحازوا على مدينة مصر.... وكان هرقل حزينًا... وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم، مرض هرقل مات.. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام...»[1].

وشهد بذلك أيضًا الأسقف (ميخائيل الرياني) فقال: «لم يسمع الإمبراطور الروماني لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى الشكاوي التي يقدمها الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذنا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»[2].

(١) محمد عمارة: هذا هو الإسلام، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ص٢٠

(٢) المرجع نفسه، ص٢١.

خامسًا

شهادة الغرب للحضارة الإسلامية بأنها حضارة علم

إن الغرب يدين للحضارة الإسلامية بكثير من الفضل وخاصة أن الحضارة الإسلامية هي التي نقلت إليهم العلم في مختلف المجالات سواء كان في الطب، أم الفلك، أم الكيمياء أم الرياضة، أم الفيزياء.... إلخ.

هناك بعض علماء الغرب اعترفوا بفضل الحضارة الإسلامية على مختلف المجالات العلمية ومنهم على سبيل المثال.

«ألبنيت جواهر لال نهرو» الذي يقول في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» وهو يصف العلماء العرب المسلمين: «... كانوا بحق آباء العلم الحديث، وإن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوربية عدا قرطبة، عاصمة إسبانيا العربية وكان لابد من وجود: ابن الهيثم، وابن سينا، والخوارزمي، والبيروني، لكي يظهر: جاليليو، وكبلر، وكوبرنيقوس، ونيوتن....»[١].

ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «... وعزي إلى بيكون أنه أول من أقام التجربة والملاحظة، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة، مقام الاستناد للاستنباط العقلي.... ولكنه يجب أن نعترف قبل كل شيء بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم»[٢].

ويقول الأستاذ فيكور روبنسون بصدد حديثه عن الموازنة بين الحضارة الإسلامية في الأندلس وبين الحالة في أوروبا: «كانت أوربا في ظلام حالك بعد غروب الشمس، بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة، كانت أوربا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة، كانت أوربا قذرة بينما شيدت قرطبة ألف حمام، كانت أوربا غارقة في الوحل بينما

---

(١) صفوت مصطفى خليلوفيتش: الإسلام والغرب، الطبعة الأولى القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٧، ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٥.

كانت قرطبة مرصوفة الشوارع، كانت سقوف التصور في أوربا مملوءة بثقوب المداخن بينما كانت قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة، وكان أشراف أوربا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس، وكان رهبان أوربا يلحنون في سِفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع [تشابه] في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة...»[١].

ويقول «موريس بوكاي» المفكر الفرنسي المعروف بأن «الإسلام قد أعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان؛ فمنذ البدء وكانت العناية بالعلم جزء لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام، وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوربا»[٢].

ويؤكد المفكر المجري لبويولدخايس (محمد أسد) على «أن التاريخ يبرهن وراء كل إمكان للريب أنه ما من دين أبدًا حث على التقدم العلمي كما حث عليه الدين الإسلامي، وأن التشجيع الذي لقيه العلم والبحث العلمي من الدين الإسلامي انتهى إلى ذلك الإنتاج الثقافي الباهر في أيام الأمويين والعباسيين وأيام دولة العرب في الأندلس، وأن أوربا لتعرف ذلك حق المعرفة لأن ثقافتها هي نفسها مدينة للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس»[٣].

هذه كانت شهادة من بعض المفكرين والعلماء الغربيين للحضارة الإسلامية بأنها كانت حضارة علمية وليس حضارة متخلفة كما يزعم البعض أو أنها حضارة دين فقط وإنما كانت شهادة على أنها حضارة علم ودين معًا.

(١) المرجع نفسه، ص١٢٦، ١٢٧.

(٢) عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، المغرب، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥م، ص٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص٥١، ٥٢.

سادسًا

نبذة عن الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية

تقاس حضارة الأمم اليوم بمدى ما وصلوا إليه من تقدم في مختلف المجالات سواء المجالات الاقتصادية، أم السياسية، أم الاجتماعية، أم العلمية... إلخ. وخاصة المجالات العلمية فهي التي تحدد هل هي حضارة متقدمة أو حضارة متخلفة وخاصة في العلوم: كالطب، والصيدلة، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والفلك... إلخ. ولو نظرنا إلى الحضارة الإسلامية لنراها قد تقدمت وقدمت كثير من الإسهامات في هذه العلوم.

وسنعرض لمحة سريعة عن بعض العلوم التي تقدمت فيها الحضارة الإسلامية لتوضيح أنها لم تكن متخلفة علميًا بل كانت متقدمة.

ونأخذ على سبيل المثال:

١- الطب والجراحة:

لقد عنى المسلمون بالطب عناية فائقة، واستوحوا كتب من سبقهم من اليونان وغيرهم، ثم عدلُّوها وصححوها، وأضافوا إليها أبوابًا جديدة لم يسبقهم إليها أحد، فتقدم الطب على أيديهم تقدمًا ظاهرًا: فلقد عرفوا طب العيون ونبغوا فيه، وكانوا في القرن الحادي عشر الميلادي يعرفون علاج الماء الذي ينصب في العين «الكاتاركتا» بالتحويل، أو استخراج البلورية وعرفوا الحميات ذات البثور كالجدري والحصبة، كما عرضوا الأمراض النفسية ودرسوا التشريح بتقطيع أجسام القردة، وهم أول من استعمل التخدير الذي يظن الناس أنه من الاكتشافات الحديثة، وذلك باستعمال نبات (الزؤان) أو (الشيلم) حتى يفقد المريض الوعي والإحساس[1].

---

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١٢م، ص٣٠٦.

أبرز الأطباء المسلمين الذين أثروا في الحضارة الغربية:

١- علي بن عيسى:

ظل كتابه «تذكرة الكحالين» يدرس في أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادي[١].

٢- أبو بكر الرازي:

ظلت كتبه في الحميات ذات البثور «الجدري والحصبة» من المراجع الأساسية التي أعتمد عليها الغرب زمنًا طويلًا، وكتابه في أمراض الأطفال هو الأول من نوعه، وقد ترجمت أكثر كتبه إلى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات.. وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساسًا للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر من الميلاد، وأشهر كتب الرازي كتاب «الحاوي» الذي جمع فيه صناعة الطب، وكتاب «المنصوري» الذي بعث به إلى الأمير منصور والمؤلف من عشر أقسام[٢].

٣- ابن سينا:

يعد ابن سينا من أشهر علماء المسلمين ويعد كتابه «القانون» من الكتب المهمة في الطب، ويشمل على علم وظائف الأعضاء، وعلم الصحة، وعلم الأمراض، وعلم المعالجة، والمادة الطبية، ووصفت فيه الأمراض بأحسن مما وصفت به في الكتب التي ألفت قبله، وقد نُقلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم وظلت مرجعًا علميًا للطب ستة قرون، وبقيت أساسًا للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسا وإيطاليا، وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة «مونبلييه» إلا منذ خمسين سنة[٣].

أما عن علم الجراحة، فهو مدين للعرب، بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم قبله مرجعًا للدراسة في كليات الطب إلى وقت قريب جدًا، ومن ذلك أن العرب كانوا يعرفون في القرن الحادي عشر الميلادي معالجة غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحصاة التي وصفها أبو القاسم بوضوح وكانوا يعرفون صب الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل... إلخ[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٠٧.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت، ص٥٠٤، ٥٠٥.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٠٦.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٠٩

٢- الفلك:

لقد برع المسلمون في علم الفلك وتقدموا فيه تقدمًا فاقوا به أساتذتهم، وظهر فضلهم فيه؛ فقد جمعوا بين آراء الفرس، والهند، والكلدان، واليونان، وغيرهم، وأضافوا إليها إضافات مهمة، وحفظوا في نقلهم لكتب الفلك اليونانية الكثير من المؤلفات التي ضاعت أصولها، وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد، ودمشق، وسمرقند، والقاهرة، وفاس، وطليطلة، وقرطبة، وغيرها[١].

أشهر علماء الفلك في الحضارة الإسلامية:

١- أبو جعفر محمد البتاني:

يعد من أشهر الفلكيين المسلمين وقد صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري، ونهض بالفلك، ووصل فيه إلى نسائج جديدة، ولكتابه «الزيج الصابئ» أثر كبير في المشرق الإسلامي، وفي غرب أوربا حتى مستهل القرون الحديثة، وقد ترجم إلى اللاتينية عدة مرات، وهو دائرة معارف ضخمة، ولا يعلم أحد من الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها[٢].

وقد عده الفلكي الشهير «لالاند» من طبقة الفلكيين العشرين الذين هم أشهر علماء الفلك في العالم[٣].

٢- أبو الريحان البيروني:

هو أعمق المفكرين المسلمين في العلوم الفلكية، والطبيعية، والرياضة، وله فيها بحوث عظيمة مبتكرة، ومؤلفات قيمة منها كتاب: «القانون المسعودي» في الهيئة والنجوم، وكتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» في تقاويم الشعوب القديمة وعاداتها، وهو دراسة نزيهة إلى درجة غير معقولة، وقد بحث في بعض مؤلفاته نظرية دوران الأرض حول محورها، ولم يكن يخالجه أدنى شك في كروية الأرض، ووصل إلى تحديد دقيق لخطوط

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣٠٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٣١٠.
(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٧٣.

الطول ودوائر العرض، وحدد بطريقة بارعة مقدار محيط الكرة الأرضية[١].

٣- الكيمياء:

الكيمياء من أهم العلوم التي عنى بها العرب، ولهم فيها فضل كبير واكتشافات مهمة؛ فهم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم وملاحظاتهم الدقيقة ومستحضراتهم المهمة[٢].

يقول العلامة ول ديورانت «يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان- على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة[٣].

ومن أشهر علماء المسلمين في الكيمياء:

١- جابر بن حيان:

لقد ألف ابن حيان كتبًا كثيرة في الكيمياء، وقد نقل عدد غير قليل منها إلى اللغة اللاتينية، وكتابه المعروف «بالاستتمام» نقل إلى الفرنسية في سنة ١٦٧٢م. مما يدل على دوام نفوذه العلمي في أوربا مدة طويلة، ويتألف من كتبه موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء في عصره» وقد اشتملت كتبه على بيان كثير من المركبات الكيمياوية التي كانت مجهولة قبله، كماء الفضة، وماء الذهب المهمين اللذين لا تتصور علم الكيمياء بغيرهما، واليوناس، وروح النشادر، وملحة، وحجر جهنم «نترات الفضة»، والسليماني والراسب الأحمر، وهو أول من وصف في كتبه التقطير، والترشيح، والتصعيد، والتبلور، والتحويل، وهي من أهم أسس الكيمياء وأسرارها[٤].

٢- الرازي:

يعد الرازي أول من وصف زيت الزاج والكحول، وخلق أكثر من مائتي مؤلف في

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣١٠، ٣١١

(٢) المرجع نفسه، ص٣١٢

(٣) وول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثالث عشر، ص١٨٧.

(٤) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣١٢، ٣١٣

الطب، والكيمياء، والهندسة، والمنطق وغيرها، ولا يزال باقيًا منها إلى الآن بضعة وعشرون مؤلفًا، ومن أهمها الحاوي وهو أجل كتبه وأعظمها[١].

٤- الفيزياء:

لقد نهضت الحضارة الإسلامية بالفيزياء كما نصت بالعلوم الأخرى. ولقد ضاعت كتب العرب المهمة في الفيزياء، ولم يبق منها غير أسمائها ككتاب الحسن بن الهيثم في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة، وفي المرايا المحرقة، ومع ذلك فإننا نستدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء من العدد القليل الذي وصل إلينا منها، ولا سيما كتاب الحسن في البصريات الذي نقل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية؛ فاستعان كيبلر به كثيرًا في كتابه عن البصريات[٢].

ومن أشهر العلماء المسلمين في الفيزياء:

١- أبو الريحان البيروني:

عين البيروني الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعًا من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيغه، وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعة والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرقة[٣].

٢- الحسن بن الهيثم:

هو من أشهر علماء المسلمين في الفيزياء وله مؤلفات وأبحاث في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة، وفي الضوء، وفي المرايا المحرقة واشتغل بالعدسات والبصريات، وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البعد البؤري، وكذلك قام بأبحاث أخرى خاصة مما يسمى الغرفة المظلمة أو آلة التصوير التي كان هو أول من استخدمها، ويعزو إليه أيضًا اكتشاف

(١) المرجع نفسه، ص٣١٣.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٨٧.

(٣) وول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثالث عشر، ص١٨٦.

التمييز بين الظل وشبه الظل. وقد نقل «روجر بيكون» نتائج كثير من هذه الدراسات إلى علماء الغرب، كما ترجمت رسالته عن المرئيات إلى اللاتينية والإيطالية، واتخذها كيبلر مرجعًا اعتمد عليه في أبحاثه[١].

٥- الرياضيات:

اتسع البحث في الرياضيات، ولا سيما علم الجبر، عند العرب، وعزى إلى العرب اكتشاف علم الجبر، ولكن أصوله كانت معروفة منذ زمن بعيد، ومع ذلك فقد حول للعرب علم الجبر تحويلًا تامًا، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة[٢].

ومن أشهر علماء المسلمين في الرياضيات:

محمد بن موسى الخوارزمي:

كان الخوارزمي منقطعًا إلى خزانة كتب الحكمة للمأمون. وألف كتب منها كتاب «الزيج الأول» وكتاب «العمل الاسطرلاب» وكتاب «التاريخ» وكتاب «الجبر والمقابلة» الذي ألفه بتكليف من الخليفة المأمون، وقد نقله إلى اللاتينية روبرت الشتري ١١٤٥م. واقتبس منه الأوربيون معارفهم والجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، وبذلك قدم العرب علمًا جديدًا إلى أوربا[٣].

٦- فلسفة الحضارة

من أشهر علماء المسلمين في فلسفة الحضارة:

ابن خلدون:

ابن خلدون هو عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، ولد في تونس وشب فيها وتخرّج من جامعة الزيتونة، وليَ الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل إلى مصر حيث قلده

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣١٤، ٣١٥.

(٢) حضارة العرب، ص٤٧١.

(٣) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٣١٨.

السلطان برقوق قضاء المالكية. ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمي، ومن أشهرها كتاب: العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)[١].

ابن خلدون مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي حضرمي الأصل. عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركًا تراثًا ما زال تأثيره ممتدًا حتى اليوم. ويعتبر ابنُ خَلدون مؤسسَ علم الاجتماع الحديث ومن علماء التاريخ والاقتصاد[٢].

مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

يأتي مفهوم الحضارة عند ابن خلدون عندما استخدم لفظ «العمران» للدلالة على مستوى الحياة التي يحياها الناس، وعدَّ الحضارة غاية العمران ومنتهاه، خلافًا للبادية التي تمثل أول العمران ومبتداه، وفي مرحلة الحضارة يكون الناس، برأي ابن خلدون، بلغوا حالة زائدة على الضروري من أحوال معاشهم تمكنهم من التفنن والترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوه الترف ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش وسائر عوائد المنزل وأحواله وما تستدعيه أصناف الصنائع المستعملة من القوة والمهرة فيها مع ما يسيغه تكرار هذه الصنائع على اتصال الأيام من استحكام ورسوخ لها.

والمنحى الذي يذهب ابن خلدون إليه في مدلول لفظ الحضارة يشير إلى استعماله لفظ الحضارة للدلالة على نوع معين من الحياة يشبه إلى حد كبير مدلول لفظ «المدنية» في العصر الحاضر عند بعض الباحثين الذين يرون المدنية مجموعة المظاهر المادية التي تمثل

(١) ويكيبديا الموسوعة الحرة.

(٢) المرجع نفسه.

مستوى إشباع الحاجات الإنسانية في المجتمع[١].

بهذا يكون تعريف ابن خلدون للحضارة بأنّها «تفنّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله».

كما إنّه عرّفها ضمن الإطار الاجتماعي والتاريخي: بأنّها الوصول إلى قمّة العمران والتطوّر الثقافي والشخصي للمجتمع والدخول للرقي الاجتماعي الثابت. فالحضارة بوجهة نظره هي نهاية العمران، بيد أنّ ابن خلدون تأثّر في ثقافة عصره وألفاظها التي تختلف عنها الآن، وقد يكون غير دقيق أحيانًا في المصطلحات والمفاهيم ويبرز ذلك عنده في لفظ الحضارة حين يستعمل لفظ دولة بمعنى الحضارة بيد أنّ ذلك عائد للمصطلحات واختلافها بين العصور فهو لم يتوقع أن تتطوّر اللغة وتختلف من عصر لآخر، ومع ذلك يُعتبر ابن خلدون أوّل من استخدم مصطلح الحضارة بمفهومه القريب من معناه حديثًا[٢].

التاريخ ونظرية الحضارة عند ابن خلدون:

بداية يمكننا القول: إن مكانة عائلته الاجتماعية مكنته من الدراسة على يد أفضل المدرسين في المغرب العربي. تلقى علم التربية الإسلامية التقليدية، ودرس القرآن الكريم الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، واللسانيات العربية، وأساس فهم القرآن، الحديث، الشريعة (القانون) والفقه علم التاريخ.

لقد تجمعت في شخصية ابن خلدون العناصر الأساسية النظرية والعملية التي تجعل منه مؤرخًا حقيقيًا - رغم أنه لم يول في بداية حياته الثقافية عناية خاصة بمادة التاريخ - ذلك أنه لم يراقب الأحداث والوقائع عن بعد كبقية المؤرخين، بل ساهم إلى حد بعيد ومن موقع المسؤولية في صنع تلك الأحداث والوقائع خلال مدة طويلة من حياته العملية تجاوزت ٥٠ عاما، وضمن بوتقة جغرافية امتدت من الأندلس وحتى بلاد الشام. فقد استطاع، ولأول

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة، بتاريخ: ٢٨/ ١٠/ ١٤٣٠ه، موقع الخطباء، https://khutabaa.com/.

(٢) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون، موقع موضوع، بتاريخ: ١٠/ ٧/ ٢٠١٨. https://mawdoo3.com

مرة، (إذا استثنينا بعض المحاولات البسيطة هنا وهناك) أن يوضح أن الوقائع التاريخية لا تحدث بمحض الصدفة أو بسبب قوى خارجية مجهولة، بل هي نتيجة عوامل كامنة داخل المجتمعات الإنسانية، لذلك انطلق في دراسته للأحداث التاريخية من الحركة الباطنية الجوهرية للتاريخ. فعلم التاريخ، وإن كان (لا يزيد في ظاهره عن أخبار الأيام والدول) إنما هو (في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، لذلك فهو أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق(المقدمة). فهو بذلك قد اتبع منهجا في دراسة التاريخ يجعل كل أحداثه ملازمة للعمران البشري وتسير وفق قانون ثابت[١].

يقول: «فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضًا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونًا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهان لا مدخل للشك فيه، وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارًا صحيحًا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه».

وهكذا فهو وإن لم يكتشف مادة التاريخ، فإنه جعلها علما ووضع لها فلسفة ومنهجا علميا نقديا نقلاها من عالم الوصف السطحي والسرد غير المعلل إلى عالم التحليل العقلاني والأحداث المعللة بأسباب عامة منطقية ضمن ما يطلق عليه الآن بالحتمية التاريخية، وذلك ليس ضمن مجتمعه فحسب، بل في كافة المجتمعات الإنسانية وفي كل العصور، وهذا ما جعل منه أيضا وبحق أول من اقتحم ميدان ما يسمى بتاريخ الحضارات أو التاريخ المقارن. «إني أدخل الأسباب العامة في دراسة الوقائع الجزئية، وعندئذ أفهم تاريخ الجنس البشري في إطار شامل. إني أبحث عن الأسباب والأصول للحوادث السياسية. كذلك قوله داخلا من باب الأسباب على العموم على الأخبار الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا. وأعطي الحوادث علة وأسبابًا»[٢].

(١) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون.

(٢) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون.

العصبية والسلطة وعوامل قيام الحضارة وانهيارها:

انطلاقًا من نظريته السابقة المتعلقة بدور العصبية في الوصول إلى الرئاسة في المجتمع البدوي، واصل ابن خلدون تحليله على نفس النسق فيما يتعلق بالسلطة في المجتمع الحضري مبينا أن العصبية الخاصة بعد استيلائها على الرئاسة تطمح إلى ما هو أكثر، أي إلى فرض سيادتها على قبائل أخرى بالقوة، وعن طريق الحروب والتغلب للوصول إلى مرحلة الملك (وهذا التغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرئاسة. فهو التغلب والحكم بالقهر، وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها). معتمدًا في تحقيق ذلك أساسًا وبالدرجة الأولى على العصبية حيث أن (الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك). فهذه إذن المرحلة الأولى في تأسيس الملك أو الدولة، وهي مرحلة لا تتم إلا من خلال العصبية.

بالوصول إلى تلك المرحلة يبدأ (العمران الحضري) شيئًا فشيئًا وتصبح السلطة الجديدة تفكر في تدعيم وضعها آخذة بعين الاعتبار جميع العصبيات التابعة لها، وبذلك فإنها لم تعد تعتمد على عامل النسب بل على عوامل اجتماعية وأخلاقية جديدة، يسميها ابن خلدون (الخلال). هنا تدخل الدولة في صراع مع عصبيتها، لأن وجودها أصبح يتنافى عمليا مع وجود تلك العصبية التي كانت في بداية الأمر سببا في قيامها، (يتراءى لنا مبدأ نفي النفي في المادية الجدلية). ومع نشوء الملك يتخطى الملك عصبيته الخاصة، ويعتمد على مختلف العصبيات. وبذلك تتوسع قاعدة الملك ويصبح الحاكم أغنى وأقوى من ذي قبل، بفضل توسع قاعدة الضرائب من ناحية، والأموال التي تدرها الصناعات الحرفية التي تنتعش وتزدهر في مرحلة (العمران الحضري) من ناحية أخرى[1].

لتدعيم ملكه يلجأ إلى تعويض القوة العسكرية التي كانت تقدمها له العصبية الخاصة أو العامة(القبيلة) بإنشاء جيش من خارج عصبيته، وحتى من عناصر أجنبية عن قومه، وإلى إغراق رؤساء قبائل البادية بالأموال، وبمنح الإقطاعات كتعويض عن الامتيازات السياسية التي فقدوها. وهكذا تبلغ الدولة الجديدة قمة مجدها في تلك المرحلة، ثم تأخذ في الانحدار حيث أن المال يبدأ في النفاذ شيئا فشيئا بسبب كثرة الإنفاق على ملذات الحياة

(١) ويكيبديا الموسوعة الحرة.

والترف والدعة. وعلى الجيوش ومختلف الموظفين الذين يعتمد عليهم الحكم. فيزيد في فرض الضرائب بشكل مجحف، الشيء الذي يؤدي إلى إضعاف المنتجين، فتتراجع الزراعة وتنقص حركة التجارة، وتقل الصناعات، وتزداد النقمة وبذلك يكون الحكم قد دخل مرحلة بداية النهاية، أي مرحلة الهرم التي ستنتهي حتما بزواله وقيام ملك جديد يمر بنفس الأطوار السابقة التي يجملها ابن خلدون في خمسة أطوار. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار[1]:

الطور الأول: طور الظفر بالبغية، وغلب المدافع والممانع، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها

فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة بقومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب، وهي لم تزل بعد بحالها.

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة

ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك، لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه. فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه حتى يقر الأمر في نصابه.

الطور الثالث: طور الفراغ والدعة

لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيتفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج، وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة، والأمصار المتسعة، والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشرف الأمم ووجوه القبائل ويث المعروف في أهله. هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه، واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في

(١) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون.

أعطياتهم لكل هلال، حتى يظهر أثر ذلك عليهم ذلك في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة. وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة

ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما أولوه سلما لأنظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه. ويرى أن الخروج عن تقليده فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير

ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسدًا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته، مضيعًا من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواتهم. وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه.أي أن تنقرض).(المقدمة) وإذن فإن تحليل ابن خلدون بولادة ونمو وهرم الدولة هو ذو أهمية بالغة، لأنه ينطلق من دراسة الحركة الداخلية للدولة المتمثلة في العصبية، تلك المقولة الاجتماعية والسياسية التي تعتبر محور كل المقولات والمفاهيم الخلدونية. فقد اعتمد عليها اعتمادا أساسيا في دراسته الجدلية لتطور المجتمعات الإنسانية(العمران البشري) وكأنه يبشر منذ القرن الرابع عشر بما اصطلح على تسميته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ب (المادية الجدلية). وفي غمرة انطلاقته العلمية الرائعة الرائدة وضع إصبعه على العصب الحساس والرئيسي، وإن لم يكن الوحيد في تطور (العمران البشري) ألا وهو الاقتصاد[1].

على هذا كان اهتمام ابن خلدون في مفهوم الحضارة والعمران من خلال بحثه في أسباب قيامها وتطوّرها ومحاولة تبيان العوامل المؤدية إلى انهيارها، فهو يرى أنّ الطبيعة الجغرافيّة لها دور مهم في تطوّر العمران حيث تختلف في الأقاليم المعتدلة عنها في الأقاليم الأخرى كالحارّة والباردة، ومن العوامل الأخرى في تطوّر حضارة العمران التحوّل من

(١) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون.

البداوة للحضر، وكذلك السياسة والحاكمية لمجتمع العمران والثروة والمال واللّذان يأتيان من العمل والإنتاج، كما أنّ ابن خلدون يرى أنّ العدل عامل مهم في تطوّر العمران والظلم أحد أهم أسباب الانهيار فهو مؤذن بخراب الحضارة، كما أنّه يرى من مُسببات الانهيار أيضًا سيطرة طريقة حياة العرب على الأوطان واستبداد الحاكم وتنعّمه بالترف، فيما شبّه الحضارة والعمران بتطوّرها بالإنسان حيث إنّ الوصول للقمّة هو إيذان بالفساد والانهيار فللدول أعمار كما للبشر[١].

مما سبق يتضح:

١- إن الحضارة عن ابن خلدون عكس البداوة، وهي غاية العمران، وتؤذن بخرابه، وتحمل بذور فساده.

٢- تعاقب البداوة والحضارة عند ابن خلدون، فطور البداوة هو طور الخشونة والبأس والغلبة والاكتفاء بالضروري والفضائل، أما طور الحضارة، فإسراف وترف وسكون ودعة ومفاسد.

٣- للدول أعمار كما للأشخاص أعمار، لا تتعدى مائة وعشرين عامًا، وتمر بثلاثة أجيال: الخشونة والبسالة في المجد، والترف والانكسار وضعف العصبية، والترف والعجز عن المدافعة وانقراض الدولة.

٤- لقيام الحضارة وانهيارها أسباب متداخلة سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية[٢].

هذه كانت لمحة سريعة جدًا عن الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية وما قدمته هذه الحضارة من علم انتفع به العالم وما زال ينتفع به.

(١) غادة الحلايقة: مفهوم الحضارة عند ابن خلدون.

(٢) حسام العيسوي إبراهيم: قيام الحضارات وسقوطها «ابن خلدون نموذجًا»، موقع الألوكة، بتاريخ: ٢٨/ ٥/ ٢٠١٤. /https://www.alukah.net/culture.

سابعًا
عوامل انحدار الحضارة الإسلامية

إن غرائز العرب في الحرب والخصام كانت نافعة في دور فتوحهم ولم تلبث أن أصبحت ضارة بعد انقضائه وخلو الميدان من أعداء يحاربوهم وذلك أن العرب، بعد أن تمت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت وذلك كما حدث لهم في إسبانية وصقلية واللتين أضاعوهما بفعل انقساماتهم الداخلية على الخصوص واللتين أجلاهم النصارى عنهما بسبب تنافسهم الدائم فيهما، وعُدت نظم العرب السياسية والاجتماعية التي كانت من أسباب تقدمهم السريع أصبحت من عوامل انحطاطهم أيضًا وبيان ذلك أن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد ﷺ وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها التي كانت يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة في جزيرة العرب وقد بقى نير هذه الشريعة الحازم طيبًا ما بقيت نظم النبي ملائمة لاحتياجات أمته فلما أصبح تعديل هذه النظم ضربةَ لازب [لازمًا ثابتً] بسبب مبتكرات حضارة العرب كان نير التقليد من الثُّقل بحيث لا يمكن زحزحته[١].

وتجلى محذور عدم القدرة على التعديل الكبير على الخصوص في نظم العرب السياسية التي تقضي بأن يقبض على زمام الدولة ولي أمر واحد يجمع في يده جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية فهذه النظم كانت وحدها تساعدها على تأسيس دولة عظيمة بسهولة تعد أقل النظم إصلاحا لبقائها والدول الكبرى المطلقة التي تكون جميع السلطات في قبضة رجل واحد وكانت ذات قدرة عظيمة الفتح لا ترتقي إلا إذا كان على رأسها رجال عظماء، فإذا افتقدتهم تداعي كل شيء دفعة واحدة[٢].

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الطبعة الأولى، القاهرة، دار العالم العربي، ٢٠٠٩م، ص٦٠٧.

(٢) المرجع نفسه، ٦٠٩

ثامنًا

هل ستعود الحضارة الإسلامية إلى رونقها من جديد؟

نعم، ستعود الحضارة الإسلامية من جديد وستعود أيضًا الخلافة الإسلامية من جديد عاجلًا أم آجلًا، وذلك على الرغم من أنها تعيش حالة من الركود في شتى المجالات، ولكنها ستعود.

وليس عبثًا أن تكون الحضارة الإسلامية الوحيدة من بين سائر الحضارات التي شهدها التاريخ البشري، والحضارة القديرة على الانبعاث والنهوض مرة أخرى في المستقبل، وذلك لأنها تمتلك في أي لحظة شبكة شروطها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وتجد في الوقت الملائم - دائمًا - رحمها الذي تنمو فيه كل مرة لكي تخرج إلى الحياة وهي تحمل قدرتها على التنامي لكي تستوي على سوقها[١].

إن الحضارة المصرية أو السرمدية أو البابلية أو اليونانية أو البولينيزية أو غيرها من الحضارات المندثرة لا يمكن أن تستعيد قدرتها على النهوض مرة أخرى، لأن شروط قيامها كانت تاريخية صرفة مرهونة بالزمان والمكان، ولأن خلفيتها التصورية أو الدينية كانت مأسورة هي الأخرى في التاريخ، ولن يكون بمقدورها أن تحقق حضورًا في القرن الراهن أو القرون التالية، لأنها لا تمتلك - ابتداء - مقومات الديمومة والاستجابة لتحديات العصور[٢].

الحضارة الإسلامية سوف تعود ثانية؛ لأنها قامت على القرآن الكريم وعوامل أخرى وإن كانت العوامل الأخرى قد تدهورت أو انتهت، ولكن القرآن موجود وسيبقى موجود وسيكون سببًا في عودة الحضارة الإسلامية من جديد.

---

(١) عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥، ص٩.

(٢) عماد الدين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص٩.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩] وقد نبأ الرسول ﷺ بعودة الخلافة الإسلامية من جديد. فقال ﷺ فيما رواه عنه الإمام أحمد عن النعمان بن البشير رضي الله عنه أنه قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»، ثُمَّ سَكَتَ[١].

إذا نظرنا إلى الحديث السابق وإلى التاريخ سنجد أن معظم الحديث قد وقع بالفعل فبدأت الدولة الإسلامية بالنبوة ثم، بالخلافة الراشدة، ثم بالدولتين الأموية والعباسية وظهر فيها نظام التوريث العرشي ثم بعد سقوط الدولة الخلافة العثمانية، بدأ يظهر الحكم الجبري للشعوب الإسلامية وما زالت تعيش في الحكم الجبري والقهري والاستبدادي للشعوب الإسلامية، منتظرين أن يرفع الله عنا هذا الحكم ويهدينا إلى الخلافة مرة أخرى[٢].

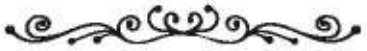

(١) تقي الدين النبهاني: الدولة الإسلامية، الطبعة السابعة، بيروت، دار الأمة، ٢٠٠٢م، ص٣.

(٢) المرجع نفسه.